إدمون عمران المليح الكاتب والانسان والقضية

إدريس علوش

شكل إدموند عمران المليح منعطفا جديدا في حفريات الكتابة في المغرب، حفريات تستمد مشروعيتها من التعدد والتنوع والاختلاف الذي عرفه المغرب استنادا إلى تركيبته البشرية ومكوناتها الاجتماعية. عبر هذا النص نقدمه للقارئ العربي باعتباره كاتبا ومبدعا ومناضلا لم يقع في فخاخ مربعات الحركة الصهيونية ومستنقعاتها، وظل وهو اليهودي الديانة المغربي الجنسية مناصرا لعدالة القضية الفلسطينية إلى آخر رمق في حياته.

اليهود المغاربة أو المغاربة اليهود - فالأمر سيان- هم ملح راسخ في التركيبة الاجتماعية المغربية، وهم أيضا أحد مكونات الهوية الثقافية والحضارية المغربيتين، لا يستقيم حال المجتمع المغربي وهويته، وثقافته، وحضارته دون وجودهم وحضورهم وهذا رأي الباحث والدارس والمتتبع سواء تعلق الامر بالحفريات الانتروبولوجية أو بالسجلات السوسيو- ثقافية في المغرب، وهو حضور قوي، مؤثر، فاعل، عميق، إنساني، ووازن .ومن العلامات المشرقة ليهود المغرب المعاصر على سبيل المثال لا الحصر نذكر من الأسماء وما تركته من أثر فعال في ساحة النضال السياسي و شرفات الابداع: أبراهام السرفاتي، سيون أسيدون، وشمعون الليفي، أما إدمون عمران المليح١٩١٧-٢٠١٠، فهو إسم على مسمى وسواء كان مليحا نسبة الى الملح وأثره على طعم وذوق الثقافة والمجتمع المغربيين، أو المليح وهي الجودة إذا ما استمعنا إلى عمق إيقاع معنى الدارجة المغربية ومغزاها في تقاطعها مع الاسم ودلالته.

حدث أني رأيت أول مرة فيها الكاتب المغربي إدمون عمران المالح، كانت في مدينة أصيلة، وهي المدينة التي أحبها وعشق تفاصيلها وإيقاع حياتها اليومي الهادئ والبسيط، وظل شغوفا بها إلى أن وافته حتمية المنية، وظل يتردد عليها باستمرار، ولا يخضع هذا التردد أو هذه الزيارات إلى منطق الموسمية، فهو-

كان- يزورها في كل المواسم في الصيف أو الشتاء، في الخريف أو الربيع، وكلما ساعدته شروطه الحياتية إلى السفر إليها، كما أن المدينة القديمة لأصيلة كانت تأسره وكان يفضل دوما السكن فيها .وأصيلة، كانت ملهمته في أول نص سردي وروائي أبدعه والذي حمل عنوان"المجرى الثابت"١٩٨٠، و النص يحكي في جانب من مضامينه عن أخر يهودي مغربي، من يهود أصيلة، دفن بمقبرة اليهود هناك سنة ١٩٦٦ المطلة على البحر والتي لم تسلم من عوالم تعرية رطوبة البحر ورياح الشرقي، ورواية "المجرى الثابت" نص سير- ذاتي للراحل إدمون عمران المليح، تلتها نصوص أخرى سردية وروائية و هي:" ألف عام بيوم واحد" ١٩٨٦، "أيلان أو ليل الحكي" ١٩٨٣، "وعودة أبو الحكي"١٩٩٠، و"آبنر أبو النور١٩٩٥"، وآخر ما نشر للراحل كان كتابه "رسائل الى نفسي" ٢٠١٠...

جاء إدمون عمران المليح إلى عالم الكتابة والإبداع، أو" الحج المالح" كما يحلو لأهل أصيلة أن يلقبوه وعلى رأسهم الفنان التشكيلي خليل غريب، والشاعر المهدي أخريف، بعد أن تجاوز عمره الستين، وهذا لا يعني أنه لم يكن مهتما ومنشغلا بالكتابة وقضاياها، وهو الأستاذ الجامعي، والمناضل الوطني في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، والذي انتصر مع مجموعة من رفاقه من داخل هذا الأخير، لضرورة تاريخية مفادها أن يعترف الحزب الشيوعي الفرنسي باستقلال المغرب وحقه في تقرير مصيره كما تنص على ذلك الأدبيات الأممية للحركات الشيوعية كونيا وعالميا.

عن هذا المسار، وعن هذه التجربة الاستثنائية التي تخص إدمون عمران المليح مناضلا وكاتبا ومبدعا وإنسانا، يقول الكاتب والناقد محمد برادة، وهو الذي يعرف الرجل حق المعرفة من موقع العلاقة الحميمية التي جمعتهما:

"عندما نشر سنة ١٩٨٠ بالفرنسية سيرته"المجرى الثابت"، شعرت بفرحة كبيرة لأن هذه السيرة الذاتية الشذرية، أكدت لدي ما أحسست عنده من رقة وقدرة على التعبير الأنيق والسخرية الموحية، كانت مفاجأة سارة لأن إدمون عمران المليح الذي ارتبط اسمه بمرحلة نضال المغرب من أجل الاستقلال، وبمسؤوليته عن قيادة الحزب الشيوعي، ومشاركته في المقاومة السرية، استطاع أن يكسر تلك الشرنقة التي واكبت شبابه ليطل علينا عبر لغة أخرى، ومن خلال شكل تعبيري متحرر من القيود، مغامرا في متاهة الذات والوجود وتعاريج الذاكرة وأسئلتها المقلقة".

كان إدمون عمران المليح يكتب باللغة الفرنسية لكنه لم يكن منخرطا في منظومة السقف الفرانكوفوني وخلفيات توسعاته الفكرية، اللغوية والسياسية، وهو الذي وجه لها النقد في أكثر من فرصة ومناسبة.

عن نفس التجربة يضيف محمد برادة:"جاء إدمون عمران المليح الى الكتابة مزودا بالتجربة السياسية والثقافية الواسعة، وحب الوطن والافتتان بالدارجة المغربية التي تشرب من خلالها ثقافة عشيرته اليهودية المنغرسة في المغرب منذ مئات السنين.لم يكن همه إذا، أن يبني مجدا بالقلم أو أن يراكم ثروة،

وإنما كانت الكتابة عنده، وقد بلغ سن النضج والكهولة، استمرارا لمعركته النضالية من أجل مغرب جديد وفلسطين محررة، لكن من موقع آخر وبأداوات مختلفة ورؤية جذرية تريد أن تقول ما قد لا يستطيع الخطاب السياسي قوله".

وعن الجدل القائم بين الابداع والسياسة يقول الشاعر والكاتب اللبناني عيسى مخلوف في معرض حديثه عن إدمون عمران المليح:

"في جلساتنا الطويلة، كنا نتناول مواضيع شتى في الأدب والفن والسياسية. وكان المليح يناقش ويتجوّل بين هذه المحاور الثلاثة كأنها الأقانيم التي تتشكل حولها حياته ومسيرته في الإبداع والنضال. لقد كان المليح صاحب نزعة إنسانية وموقفه السياسي جزء من تلك النزعة. كان يتميز بانتصاره للقضايا العادلة في العالم وفي مقدمتها القضية الفلسطينية التي خصص لها الدراسات والكتب واستوحى منها عدداً من أعماله لا سيما تلك الرواية التي تحمل عنوان: "ألف عام بيوم واحد".

وظل على هذا الحال وفيا لقناعته الوطنية والتقدمية في آن، رغم أنه فك الارتباط بالعمل السياسي والتنظيمي المباشرين منذ أن حصل المغرب على استقلاله.وكما أنه رفض وتحت أي تأثير كان ترهيبا أو ترغيبا تهديدا أو إغراء الهجرة إلى إسرائيل في منتصف الستينات، كما حدث للعديد من اليهود المغاربة الذين سقطوا في شرك الدعاية الصهونية والمتواطئين معها، وصدمهم ماعرفوه من مصير بعدما وقفوا على حقيقة الأساطير الصهيونية.

لأن إدمون عمران المليح وانسجاما مع قوة وعيه السياسي والنقدي كان يدرك أن "الواجب الخطير هو محاربة الذات السياسية والوحشية العنصرية لإسرائيل تجاه الفلسطسنيين" كما أنه كان يركز دوما على أن بناء المستوطنات تحمل أفكارا عنصرية تتنافى مع الديانة اليهودية وصفائها ونقائها الروحيين، ومن هنا كان على العالم أن يحتكم إلى ضميره ويعمل على إيقاف سياسة الاستيطان البشعة.

في نهاية الثمانينات من القرن المنصرم كرمت جمعية قدماء تلاميذ ثانوية الإمام الأصيلي الكاتب إدمون عمران المليح في ندوة "الابداع والمكان" ملفتة بذلك لأهمية هذا الكاتب وسعة مخيلته وتجديده لأساليب الكتابة. والذي لو شاء- كما فعل ويفعل كثيرون ولو على سبيل الهرولة- وانساق لمغريات آلة التقتيل الصهيونية وإمكانياتها الهائلة في الدعاية والذيوع والانتشار والتسويق، وهذا مؤكد، لحصل على أهم جائزة تمنح للأدباء والكتاب وهي جائزة نوبل.

كنت شاهدا- شاهد عيان- ذات مرة ونحن بصدد حضور افتتاح معرض الفنان التشكيلي الأصيلي خليل غريب بقاعة العرض "أبلانوس" الواقعة في المدينة القديمة بأصيلة، وفيما كنت أدخن سيجارة خارج بهو المعرض قريبا من بابه، خرج إدمون عمران المليح هو الأخر ليتنفس قليلا من الهواء نظرا لاكتظاظ المعرض بالحضور والزوار، باغته أحد "الزيلاشيين" العاملين بالخارج، وتحديدا في هولندا -مستخدم

فندقي- بالسؤال:

- لماذا لم تحضر إلى هولندا في إطار تجمع كبير ليهود العالم؟

- لم تتم دعوتي، وإلا حضرت أجابه إدمون عمران المليح.

- في ختام هذه التظاهرة تم فتح باب اكتتاب للدعم المالي ل" اسرائيل"

- أنا لا أعرف أية دولة إسمها إسرائيل.

أجابه إدمون عمران المليح بانفعال شديد مقطباً حاجبيه الكثيفتين، ومعبرا عن أقصى درجات غضبه واستيائه.

كنت قد رأيت إدمون عمران المليح مرات عديدة، وجالسته كثيرا، ولم أراه منفعلا مثلما رأيته ذاك اليوم، وحتى وأنا بصدد إجراء حوار معه في فندق الخيمة بأصيلة ذات صيف، حين سألته عن الأثر الذي خلفه غياب" ماري سيسيل"في حياته..؟ كان ذلك بعد رحيلها بأشهر قليلة. تأملني بحزن وألم، وطلب مني بعد أن قال لي لا يمكن أن أصف ذلك إلا بالكارثة، أن نوقف الحوار، لأنه في حالته هاته لا يستطيع أن يواصل. فقد كانت "ماري سيسيل" أكثر من زوجة وأكثر من صديقة هذا إن لم أقل أنها كانت أهم ما في حياته ووجوده وكيانه، بل كانت شرفته التي يطل عبرها على العالم وفوضاه وتناقضاته. وغيابها فعلا ترك خلاء وفراغا واسعين في حياته.

إدمون عمران المليح كان شغوفا بالثقافة الشعبية، والفن الفوتوغرافي، والفن التشكيلي والذين يعرفون بيته يعرفون كثافة تواجد اللوحات التشكيلية وخصوصا للتشكيليين المغاربة الذي يقول عنه "المغرب يعرف طفرة كبيرة في الميدان التشكيلي وهذا بفضل عدد كبير من الفنانين من الطراز الرفيع".

ومن مؤلفاته عن التشكيل والفوتوغراف نذكر بالاضافة الى العديد من المقالات في المجلات المتخصصة والمحكمة في الفن الكتب التالية:"صباغة أحمد الشرقاوي"، و"العين واليد"، و"رحلة الجير البحرية"، و"المقهى الزرقاء".

إدمون عمران المليح الكاتب المغربي الأصيل الذي لا يغير جلده، ولا يساوم في أفكاره وأرائه أيا كان الثمن، ظل قلبه ينبض بالحياة والوفاء لوطنيته المغربية وأصوله وجذوره وتراثه، وبنفس الحماس ظل وفيا لعدالة قضية الشعب الفلسطيني ونضاله وكفاحه المستميت ضد الكيان الصهيوني الغاشم. وآخر ما صرح به وآلات الاقتتال كانت تستبيح الدم ترتكب أبشع الجرائم في عدوانها على غزة: "اللعنة على إسرائيل".

بعد مساره الفكري والنضالي والإبداعي والحياتي الحافل بالعطاء والحراك وطرح السؤال يحط إدمون عمران المليح رحاله في محطة العمر الأخيرة بعد أن اختار بمحض العروة الوثقى التي تربطه بتراب بلده مدينة الصويرة ليدفن فيها، ليسدل الستار على تجربة إبداعية مغربية قحة شكلت في العمق التعدد والتنوع الثقافي الذي يعرفه المغرب.